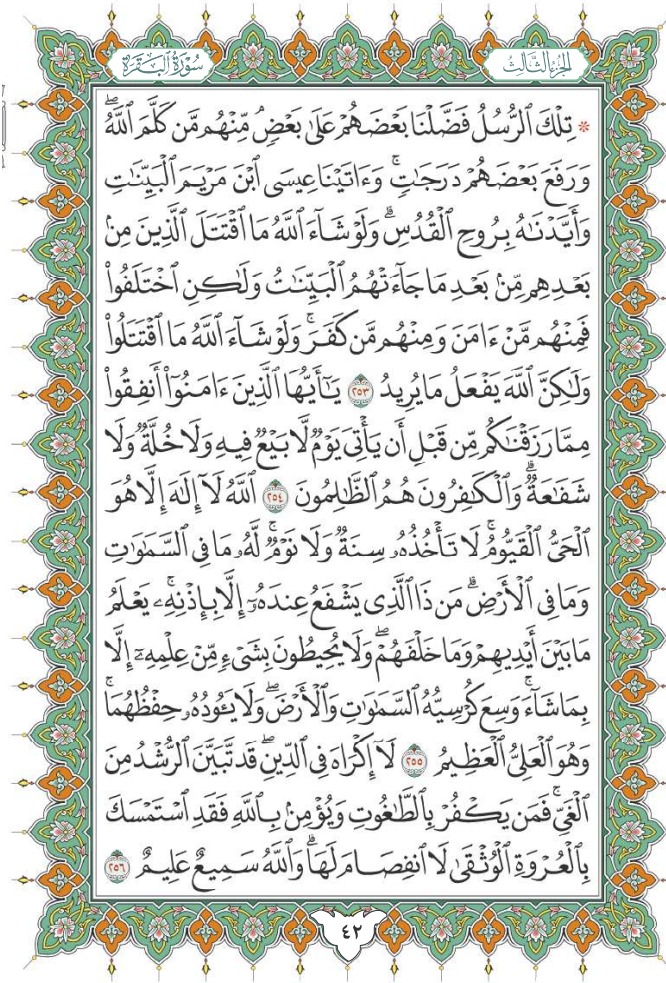


﴿٢٥٣﴾ هؤلاء الرسل الذين ذكرنا فريقاً منهم، وقد فضلنا بعضهم على بعض. فمنهم من كلمه الله دون سفير موسى، ومنهم من رفعه الله درجات فوق درجاتهم جميعاً وهو محمد ﷺ الذي اختص بعموم الرسالة، وكال الشريعة، وختمه الرسالات. ومنهم عيسى ابن مريم الذي أمددناه بالمعجزات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وأيدناه بجبريل روح القدس. وقد جاء هؤلاء الرسل بالهدى، ودين الحق، والبيّنات الهادية، وكان مقتضى هذا أن يؤمن الناس جميعاً، ولا يختلفوا ولا يقتتلوا، ولو شاء الله ألا يقتتل الناس من بعد مجيء الرسل إليهم بالآيات الواضحة الدالة على الحق ما حدث اقتتال ولا اختلاف، ولكن الله لم يشأ ذلك، ولهذا اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولا اختلفوا بل كانوا جميعاً على الحق، ولكنه يفعل ما يريد لحكمة قدرها سبحانه.

﴿٢٥٤﴾ يا أيها المؤمنون بالله وبالיום الآخر أنفقوا بعض ما رزقكم الله في وجوه الخير، وبادروا بذلك قبل أن يأتي يوم الحساب، يوم لا تجارة فيه تستغيضون بها عما خسرتم، فلا تستطيعون تدارك ما فاتكم في الدنيا، ولا ينفع فيه بيع ولا صداقة ولا شفاعة من ذي جاه تنقذكم، والكافرون - مانعو الزكاة - هم الذين يظهر ظاههم في ذلك اليوم، إذ لم يستجيبوا لدعوة الحق. ﴿٢٥٥﴾ الله هو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه، وهو الباقي القائم على شؤون خلقه دائماً، الذي لا يغفل أبداً، فلا يصيبه فتور ولا نوم ولا ما يشبه ذلك لأنه لا يتصف بالنقص في شيء، وهو المختص بملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك أحد، وبهذا لا يستطيع أي مخلوق كان أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، وهو - سبحانه وتعالى - محيط بكل شيء عالم بما كان وما سيكون، ولا يستطيع أحد أن يدرك شيئاً من علم الله إلا ما أراد أن يعلم به من يرتضيه، وسلطانه واسع يشمل السموات والأرض، ولا يصعب عليه تدبير ذلك لأنه المتعالي عن النقص والعجز، العظيم بجلاله وسلطانه.

﴿٢٥٦﴾ لا إجبار لأحد على الدخول في الدين، وقد وضح بالآيات الباهرة طريق الحق، وطريق الضلال، فمن اهتدى إلى الإيمان وكفر بكل ما يطغى على العقل، ويصرفه عن الحق، فقد استمسك بأوثق سبب يمنعه من التردّي في الضلال، كمن تمسك بعروة متينة محكمة الزباط تمنعه من التردّي في هوة، والله سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون ومجازيكم على أفعالكم.



درجات الرسل وأحوال الناس في اتباعهم

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى قصة طالوت وجالوت وداود، وأعقبها بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) ليقم الدليل بمعرفة تلك القصص، على أن محمدًا ﷺ من المرسلين الذين أوحى إليهم الوحي المبين لأحوال الماضين.

ذكر تعالى هنا أن الرسل درجات، ميّز الله بعضهم على بعض، بمزايا ومناقب ليست لغيرهم، وأن أحوال الناس عموماً في اتباع الرسل: إما مؤمنون وإما كفار، وإما مسالمون وإما متقاتلون، لحكمة ربّانية مردها إلى قضاء الله وقدره.

المعنى العام

يخبر تعالى أنه فضّل بعض الرسل على بعض، ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ الذين قصصناهم عليك، وذكرت لك يا محمد أنك منهم، ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بمخائص ومناقب لم توجد في غيره. لكنّ هذا التفضيل إنما يكون في الجملة من غير تعيين المفضول، لأنه تنقيص في حقّه وهو ممنوع. ولذلك قال ﷺ: «(لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ)»^(٢) وفي حديث آخر: «(لَا تَقْصَلُونِي عَلَى أَخِي يُؤُسَ)»^(٣) فإنّ معناه النهي عن تعيين المفضول، لأنّه غيبة وتنقيص، ذلك أنّ الرّسالة والنّبوة معنًى واحدٌ، لا تَفَاضُلَ فِيهَا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ فِي تَفْضِيلِ اللَّهِ ﷻ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ بَعْدَ النَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ، وَمَا يَخْدُثُ لَهُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تُبَيِّنُ شَرَفَهُمْ وَفَضْلَهُمْ عِنْدَهُ. وقد صرح ﷺ بفضله على جميع الأنبياء، فقال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»^(٤) لكتبه لم يعين أحداً من الأنبياء بالمفضوليّة لئلا يؤدي إلى نقصه، فلا تعارض بين الحديثين.

﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ وهو موسى ﷺ في جبل الطور، وسيّدنا محمد ﷺ حين كان قاب قوسين أو أدنى، ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء^(٥) حيث رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله ﷻ.

فنبينا محمد ﷺ خصّه الله تعالى بالدعوة العامّة، والحجج المتكاثرة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والفضائل العلميّة والعملية الفائتة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه، كأنّه العلم المشهور المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم، خصّه بالخلة التي هي أعلى المراتب.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي سعيد، حديث رقم: ٦٩١٦، كتاب: الديات، باب: إذا لطم المسلم يهودياً عند الغضب.

(٣) رواه أبو بكر الكلاباذي في بحر الفوائد، باب: حديث آخر، ج ١، ص ٨٠.

(٤) رواه الحاكم في المستدرک، عن جابر بن عبد الله، حديث رقم: ٤١٨٩، كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب: ذكر أخبار سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد، الحديث إسناده صحيح.

(٥) وهو حديث رواه الشيخان وفيه أنّه ﷺ رأى آدم في السماء الأولى، ويحيى وعيسى في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، عليهم الصلاة والسلام، هذا هو مراد ابن كثير رحمه الله.

ونقول: ليس هذا هو المراد بالدرجات التي ذكرت في الآية، بل هي درجات الكرامة والفضل، فمعنى الآية: أي: رفع بعضهم درجات في الكرامة ورفعة المنزلة كما قال ابن جرير الطبري، ولا علاقة لهذا التفضيل بوجود أحدهم في سماء والآخر في سماء أخرى أعلى منها، فإن عيسى الموجود في السماء الثانية أفضل من هارون الموجود في السماء الخامسة ومن إدريس ومن يوسف أيضاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ﴾ أي الحجاج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أيده الله بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لو أراد الله ما اقتتلت الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجاج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم. فلو شاء الله ما تنازعوا ولاختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقين على كلمة الحق، ﴿وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ أي ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مكاتبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يتقاتلون ولكن الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكل ذلك عن قضاء الله وقدره، فهم مُصَرَّفُونَ بالمشيئة الأزلية، مسلوبون من الاختيار الذي عليه المدار وبه الاعتبار، فهو الفعال لما يريد ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ﴾ لحكمة قدرها.

لطائف الإشارات للسلوك والتركية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآية:

١. دين الأنبياء واحد ألا وهو الإسلام. لا نفرق بين أحد منهم في الدين، و لكن هناك تفاضل فيما بينهم بالمزايا والفضل والمنزلة عند الله تعالى.
٢. تفاضل الرسل فيما بينهم بحسب تحققهم بأسماء الله تعالى، وجهادهم، وصبرهم وما أهلهم الله تعالى له من الكمال.
٣. الرسل المذكورون في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولاً، كلهم أنبياء ورسل.
٤. الرسل أفضل من الأنبياء، وأفضل الرسل الخمسة والعشرين المذكورة أسماءهم في القرآن الكريم.
٥. أفضل الرسل من بين الخمسة والعشرين، أولو العزم، وهم خمسة: ساداتنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام وسيدنا محمد ﷺ.
٦. سيدنا محمد ﷺ هو أفضل الرسل على الإطلاق، وهو إمام المرسلين، وأفضل مخلوق خلقه الله تعالى على الإطلاق.
٧. صفة الكلام لله تعالى، صفة قائمة بذات الله تعالى، حيث كلم سيدنا موسى في الطور، وكلم سيدنا محمدًا ﷺ في الملكوت الأعلى في رحلة المعراج.
٨. الكفر والإيمان والهداية والضلال والحرب والسلام، كل ذلك تبع لمشيئته تعالى وحكمته.
٩. ذم الاختلاف في الدين مصدر شقاء وعذاب.
١٠. الصفات الواجبة في حق الأنبياء: الصدق والأمانة والتبليغ والفتانة.

سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ سَيِّدُ النَّاسِ ﷺ وَهُوَ صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ بِي ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسَمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَتَفَذُّهُمْ الْبَصَرُ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ. فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أُتْنِمَ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ.

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَغَضِبْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذِبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَانَتْ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةً مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟

فَأَنْطَلِقُ، فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمِّي أُمِّي، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَذْخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمُضْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيحِ الْجَنَّةِ لَكُمْ بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجْرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى^(١).

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٩٤، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

مراتب المسلمين:

تتفاوت مراتب المسلمين بحسب معرفتهم برّبهم فمنهم:

- من هو سابق بالخيرات بإذن الله: وهم الذين يؤدّون الواجبات والمستحبات، ويتركون المحرمات والمكروهات.
- ومنهم مقتصد: وهم الذين يؤدّون الواجبات ويتركون المحرمات، ولكن يقتصدون في فعل المستحبات وترك المكروهات.
- ومنهم ظالم لنفسه: وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ويشهد لهذا التقسيم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(١). وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله في قول الله عز وجل: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قَالَ: «كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ»^(٢).

وأوضح القرآن الظالمين لأنفسهم من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوزَ اغْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

والتقسيم الذي جاء في سورة الواقعة هو للناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم. فالسابقون: هم المقربون، ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٤).

وأصحاب الميمنة (اليمين): هم قسما المقتصدين والظالمين لأنفسهم، وهم ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٥). ويشهد للتفاضل قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(٦).

ويكون الارتقاء في دار التعميم بحسب الدرجة التي نالها من كان من السابقين أو من أهل اليمين، ويكون تنازل دركات أهل العذاب بحسب جرائمهم وإساءاتهم ومعاصيهم.

من أسماء الله الحسنى: الرافع

شرح الاسم: الرافع

- عظيم الصفات المستحق لدرجات المدح والثناء، وليس لأحد من خلقه هذه الصفة.
- هو المعلي للأقدار، وهو الرافع يرفع من يشاء من خلقه، ويعلي مكانته ويزكي قدره ويقدم ذكره، فلا يرتفع إلا من رفعه الله، وأرفعهم قدراً رسول الله محمد صلى الله عليه وآله.
- هو الذي يرفع الأولياء فينصرهم على الأعداء. ورفع مقامهم بالحياة بخضوع القلوب لهم، واحترام العالم لأشخاصهم ولو كانوا فقراء ضعفاء.
- هو الذي يرفع الصالحين إلى أعلى عليين، ورفع شأنهم بعد ماتهم، فترى القلوب تحن إليهم وتحنو عليهم وتزورهم وتعظمهم.
- هو الذي رفع السماء بغير عمد، ورفع الغمام على متن الهواء، ورفع الطيور في الفضاء.

التعلق باسم الله الرافع

- أن تكون رفيع القدر واسع النفس، راضياً بما قسمه الله لك إذا أنعم الله تعالى عليك بنعمة من نعم الدنيا تنعمت

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٢) رواه البيهقي في البعث والنشور، عن أسامة بن زيد، حديث رقم: ٥٩، باب: قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾، الحديث صحيح مقطوع.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٣. (٤) سورة الواقعة، الآية: ١٣-١٤. (٥) سورة الواقعة، الآية: ٣٩-٤٠. (٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

بها، وإذا قبضها عنك لا تطمح إليها ولا تجعل همك بها.

- أن ترفع همك عن الخلق، وتؤدي عبادتك لله، فلا تسمع أو تُري أعمالك الصالحة لأحد من الخلق، أي أقول ما يُرضي ربي لا أقول ما يُرضي الناس، وأفعل ما يُرضي ربي لا أفعل ما يُرضي الناس.
- أن تسعى لتكون من الأولياء من السابقين السابقين، ولا تكتفي أن تكون من عموم أهل اليمين. قال ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّ شَيْئًا، وَلَكِنْ لِيُغْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلِيُعْظِمِ الرِّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أُعْطَاهُ»^(١).
- الرفع قدرك على قدر همك: من عانى الشأن الصغير كان شأنه صغيراً، ومن عانى الشأن الكبير كان شأنه كبيراً. وإذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر فيما أقامك، كأن يقيمك في نشر الأخلاق المحمدية ونشر هذا الدين، ونشر الصلاة على النبي ﷺ، وفي نشر الكلمة الطيبة ونشر معاني لا إله إلا الله.
- أن يتأدب العبد مع الله تعالى فيما رفعه به، فإن أساء الأدب فقد يخفضه الله تعالى بعد أن رفعه. إذا رفعك الله بالعلم أو بالمال والجاه، فلا تتعال على غيرك وترى نفسك أنك أفضل منهم فتعاقب. واعلم أن من تدلل لله تعالى في دنياه، رفعه الله تعالى في عقباه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾^(٢).

في الأمر والنهي

في الأخلاق والآداب

التخلق باسم الله تعالى الرفع:

- أن تتبع الأمور التي ترفع شأنك وقدرك، ومنها العلم والتقوى. وأن تكون في خدمة الناس وقضاء حوائجهم، وهذا يرفعك عند الناس وعند الله.
- أن لا تقف في وجه من أراد الله رفعته، لأن ذلك سوف يزيده رفعة ويزيدك ذلة، بل ترضى بقسمة الله تعالى فيرفع قدرك ويعلي شأنك.
- أن تكون عالي الهممة، همك أمة النبي ﷺ. تعلم من رسول الله ﷺ عندما كان يقول: يا رب أمتي أمتي - أمة الدعوة -.
- الحكمة: سوايق الهمم لا تحرق أسوار الأقدار^(٣).

في السيرة والشمائل

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَمْتُهُو كُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْنَاءَ نَفْيَةٍ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتَكْذِبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتَصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(٤).

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٣٦٧٩، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٠.

(٣) الحكم العطائية، لعطاء الله السكندري، رقم ٣.

(٤) رواه أحمد في مسنده، عن جابر بن عبد الله، حديث رقم: ١٥١٥٦، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: جابر بن عبد الله.

إِنَّ الْقَوْلَ فِيمَا أُعْطِيَ إِدْرِيسَ عليه السلام، من الرِّفْعَةِ الَّتِي نَوَّهَ اللَّهُ بِذِكْرِهَا فَقَالَ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(١) والقول في أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم أُعْطِيَ أَفْضَلَ وَأَكْمَلَ مِنْ ذَلِكَ؛ مَرَدَّهُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٢). فليس خطيب ولا شافع ولا صاحب صلاة إلَّا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقرن الله اسمه باسمه في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك مفتاحًا للصلاة المفروضة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ لَكَ: كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللَّهُ أَغْلَمُ، قَالَ: إِذَا دُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِيَ»^(٣) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا فَرَعْتُ عَمَّا أَمَرَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ أَمْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْتُ يَا رَبِّ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا وَقَدْ كَرَّمْتُهُ جَعَلْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَمُوسَى كَلِيمًا، وَسَخَّرْتَ لِدَاوُدَ الْجَبَالَ، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ وَالشَّيَاطِينَ، وَأَخْبَيْتَ لِعِيسَى الْمَوْتَى مَا جَعَلْتَ لِي؟ قَالَ أَوْ لَيْسَ قَدْ أُعْطَيْتُكَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَتَيْ لَا أَذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِيَ وَجَعَلْتَ صُدُورَ أُمَّتِكَ أَنَا حِيلَ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ ظَاهِرًا وَلَمْ أُعْطِهَا أُمَّةً، وَأُعْطَيْتُكَ كَثْرًا مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»^(٤).

عن ابن عباس رضي الله عنه، قَالَ: "مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لِمَنْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَلِيَتَّبِعَنَّهُ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ؛ لِمَنْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءُ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَلِيَتَّبِعَنَّهُ. وَقَدْ بَشَّرْتُ بِوُجُودِهِ الْأَنْبِيَاءُ حَتَّى كَانَ آخِرُ مَنْ بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَذَلِكَ بَشَّرْتُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّهْبَانُ وَالْكُهَّانُ، كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ مَبْسُوطًا، وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ رُفِعَ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى سَلَّمَ عَلَى إِدْرِيسَ عليه السلام، وَهُوَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، ثُمَّ جَاوَزَهُ إِلَى الْخَامِسَةِ، ثُمَّ إِلَى السَّادِسَةِ، فَسَلَّمَ عَلَى مُوسَى بِهَا، ثُمَّ جَاوَزَهُ إِلَى السَّابِعَةِ فَسَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ بِهَا عِنْدَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ جَاوَزَ ذَلِكَ الْمَقَامَ، فَرَفَعَ لِمُسْتَوًى يُسْمَعُ فِيهِ صَرِيفُ الْأَقْلَامِ، وَجَاءَ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى، وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ، وَشَيعَهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَقَرَّبُوهَا، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ رِضْوَانُ خَازِنِ الْجَنَّةِ، وَمَالِكُ خَازِنِ النَّارِ، فَهَذَا هُوَ الشَّرْفُ، وَهَذِهِ هِيَ الرِّفْعَةُ، وَهَذَا هُوَ التَّكْرِيمُ وَالتَّنْوِيهُ وَالْإِشْهَارُ وَالتَّقْدِيمُ وَالْعُلُوُّ وَالْعَظَمَةُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ". وَأَمَّا رَفْعُ ذِكْرِهِ فِي الْآخِرِينَ، فَإِنَّ دِينَهُ بَاقٍ نَاسِخٌ لِكُلِّ دِينٍ، وَلَا يُنْسَخُ هُوَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالتَّيْدَاءُ بِالْأَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مُزْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَهَكَذَا كُلُّ خَطِيبٍ يَخْطُبُ لَا بُدَّ أَنْ يَذْكُرَهُ فِي خُطْبَتِهِ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ حَسَّانَ.

مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
فَدُّوا الْعَرْشَ مُحَمَّدُ وَهَذَا مُحَمَّدٌ^(٥)

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ
وَصَمَّ إِلَهِهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ

(١) سورة مريم، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم: ٣٣٨٢، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الإخبار عن إبادة، تعدد النعم للمنع على المنعم عليه في الدنيا.

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره، عن أنس، باب: سورة الشرح، الآيات: ٨٠-٨١، ج: ٨، ص: ٤١٦.

(٥) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية، باب: أعطي إدريس عليه السلام الرفعة، ج: ٩، ص: ٣٧٣-٣٧٤.

